

القصة في القرآن: خصائص وأغراض

ثناء الله حسين

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن استمسك بسنته إلى يوم الدين، وبعد:

فإن القصص القرآنية تمثل موكب الإيمان في طريقه الواصل الطويل في الدعوة إلى الله تعالى واستجابة البشرية جيلاً بعد جيل، وهو إعلام وإخبار لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وللأمة بواسطته، بسير الأنبياء والمرسلين وأحوالهم مع أممهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ (١). وفي كل ذلك معجزة له.

وقد جاءت القصص القرآنية عبرة وعبرة لأمة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم حتى يتحقق فيها ما قرره الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢) ثم هي في النهاية تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بدعاً من الرسل وإنما جاء خاتماً للمنهج السماوي المنزل فالحبل متصل والأمة واحدة والرب جلّ وعلا واحد أحد لا إله سواه كما جاء في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

١- سورة يوسف، الآية: ٣.

٢- سورة يوسف، الآية: ١١١.

وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿٣﴾.

إن دراسة القصة القرآنية تستلزم أن نقف على جملة من أمور، وهي: تعريف كلمة "القصة" ذاتها وأهم عناصرها ومقوماتها وأنواعها، والهدف من القصة والفرق بينها وبين الحكاية والتاريخ والرواية ومكانة القصة في القرآن.

تعريف القصة لغةً:

إن لكلمة "قصة" أو القصّ عدة معانٍ منها "البيان" كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (٤) أي نبين لك أحسن البيان، ومنها "تتبع الأثر شيئاً بعد شيء" كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (٥) أي اتبعي أثره، ومنها الخبر وهو القصص والقصص الخبر المقصوص، وسُمي الخبر الطويل قصصاً لأن بعضه يتبع بعضاً فيطول، وإذا استطال السامع الحديث قال هذا قصص (٦) والقصة الأمر والحديث (٧) والقصة الشأن والأمر: يقال ما قصتك، أي ما شأنك (٨).

وقيل أن أصل القصص اسم فاستعمل استعمال المصدر، فالقصص مصدر واسم، والقصة النوع والشأن والأمر والحديث، والقصة أيضاً الأحداث التي تكتب، جمعها قصص، بكسر القاف، وأقاصيص (٩).

وكما ذكرنا فإن لكلمة "قصة" مفهوماً لغوياً يدور حول معنى التتبع لأمر ما وبيانه والإخبار به سواء كان عن طريق الكتابة أو عن طريق الإلقاء والحكاية، فمدلول القصة في اللغة هو الحكاية عن خبر وقع في زمن مضى لا يخلو من عبرة مع شيء من التطويل في الأداء (١٠).

٣- سورة الشورى، الآية: ١٣.

٤- سورة يوسف، الآية: ٣.

٥- سورة القصص، الآية: ١١.

٦- ابن منظور: لسان العرب، ج ٧، ص ٤٨، ٨٣، مادة قصص، دار صادر، بيروت.

٧- بطرس البستاني: محيط المحيط، المجلد الثاني، ص ١٧٣٠، بدون تاريخ واسم المطبعة.

٨- أحمد محمد المجذوب: قصص القرآن وقصص القصاص، في مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٢١٣ رمضان، ١٤٠٢هـ، ص ٤٦.

٩- محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، ص ٤٦، دار صادر، بيروت.

١٠- أحمد بن محمد الفيومي: كتاب المصباح المنير، الجزء الثاني، ص ٤٩٦، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٢٦م.

تعريف القصة اصطلاحاً:

أما القصة بالمعنى الاصطلاحي فهي عرضٌ لفكرةٍ مرّت بخاطر الكاتب، أو تسجيل لصورة تأثرت بها، أو بسط لعاطفة التهيب في صدره فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهان القراء، محاولاً أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه، أو هي تصوير الحياة في فترة من فتراتها بكل جزئياتها وملابساتها وتفصيلاتها كما تمرّ في الزمن ممثلة في الحوادث الخارجية والمشاعر الداخلية^(١١). وقيل هي حكاية نثرية طويلة تستخدم من الخيال أو الواقع أو منهما معاً، وتبنى على قواعد معينة من الفنّ الكتابي^(١٢) ويقال أنها الخبر أو الجملة من الكلام الذي يساق على نحو متسلسل في موضوع من الموضوعات^(١٣). وقيل: بأنها قالب من قوالب التعبير، يعتمد فيه الكاتب على سرد أحداث معينة، تجري بين شخصية وأخرى أو شخصيات متعددة يستند في قصّها وسردها على عنصر التشويق حتى يصل بالقارئ أو السامع إلى نقطة معينة، تتأزم فيها الأحداث وتسمى "العقدة" ويتطلّع المرء معها إلى الحلّ، حتى يأتي على النهاية، على أن بعض النقاد لا يرى العقدة ولا الحلّ لأزمن لفنّ القصة^(١٤).

المبحث الثاني: عناصر القصة

إن القصة تُعنى بمعالجة لمحة أو لمحات محددة من الحياة أو جانب من شخصية من الشخصيات، وإذن لا بد من أن تتوفر فيها عناصر أساسية ومهمّة وهي:

أ- الحدث أو الأحداث:

وهو الموضوع الذي تدور حوله القصة، ويعدّ العنصر الرئيسي فيها، إذ يعتمد عليه في تنمية المواقف، وتحريك الشخصيات، ولما كان القاصّ يستمدّ أحداثه من الحياة المحيطة به لتكون مطابقة للواقع، كان لا بد من اختيار هذه الأحداث وتنسيقها، وعرض جزئياتها عرضاً يصور الغاية المحددة منها، بحيث تبدأ بزمن ما وتنتهي بزمن آخر محدد^(١٥). وهكذا نرى أن للأحداث في القصة أثراً كبيراً في نجاحها ولا سيما إذا استطاع الكاتب أن يحتفظ في كل مرحلة من مراحل عرضها، بعنصر

١١- عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٤١، دار الكتب اللبناني، بيروت.

١٢- محمود بن الشريف، القصة في القرآن، ص ٢١، الطبعة الأولى، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

١٣- إبراهيم مصطفى وأصحابه: المعجم الوسيط، الجزء الثاني، ص ٧٤٦.

١٤- محمود سالم عبيدات: دراسات في علوم القرآن، ص ٢٣٢، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٠م/١٤١١هـ.

١٥- عزيزة: القصة والرواية، ص ١٢، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

التشويق فهو الذي يثير اهتمام القارئ، ويشده من أول القصة إلى آخرها. وأيضاً إن شرط الجاذبية في تسلسل الأحداث، أن تدرج في أجزاء موضوع القصة، فتبدأ ضعيفة ثم تنمو كلما نما العمل وتعدّد الحوادث حتى تنتهي من الحل وقد استراح السامع^(١٦).

ب- شخصيات القصة:

لا يكفي الحدث وحده في تأليف قصة ما، بل لا بد من وجود الشخصية التي تدور القصة معها أو حولها، فالشخصية هي الكائن الإنساني الذي يتحرّك في سياق الأحداث، وقد تكون الشخصية من الحيوان، فيستخدم عندئذ كرمز يشف عما وراءه من شخصية إنسانية، تستهدف من ورائها العبرة والموعظة كما في "كليلة ودمنة" والقصص التعليمية الأخرى^(١٧).

ج- البيئة:

ومن عناصر بناء القصة التي تجب العناية بها "البيئة" التي تدور فيها الأحداث وتتحرك الشخصيات ونعني بها البيئة الزمانية والمكانية والجو العام المحيط بها. وقد يعطي الكاتب الأولوية للبيئة الاجتماعية، وقد يوليها للمناخ السياسي أو العاطفي أو الإنساني، بحسب مضمون القصة، فيخضع الشخصيات لهذه البيئة التي تتناسب والأحداث الدائرة فيها.

هـ- الهدف من القصة:

أمامنا نظريتان: الفن للفن، والفن للمجتمع والحياة؛ يقول أنصار النظرية الأولى: إن أي لون من ألوان الأدب والفن، لا يكون جميلاً ومستساغاً إلا إذا كان عملاً فنياً متقناً، وعلى الكاتب أو الفنان أن يكون الفنّ للفنّ عنده هو الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه في إنتاجه، بصرف النظر عن مضمونه وفائدته. وأما أصحاب النظرية الثانية فيقولون: لا بد أن يكون للأدب أو الفن مضمون اجتماعي أو قومي حيوي يكون الهدف من ورائه إصلاح المجتمع بوجه عام. ونرى أن الفنان القدير هو من يجمع بين الناحيتين، فيحرص كل الحرص على سلامة القصة من الناحية الفنية إلى جانب مراعاة الهدف الجيد، لأنه بذلك أشد تأثيراً وأقوى فناً^(١٨).

١٦- المرجع السابق، ص ٢٥.

١٧- أحمد الزيات: في أصول الأدب، ص ٣٤٥، الطبعة الثالثة.

١٨- انظر: للتفصيل، عزيزة، القصة والرواية، ص ٢٧.

و- أسلوب القصة:

وهو العنصر الحيوى الأشدُّ تأثيراً في القصة ومضمونها، ونعني به طريقة الكاتب في صياغة جملة واختيار كلماته للتعبير عن فكرته أو رسم الصورة التخيلية في ذهنه، أو نقل الإحساس الذي يعتلج في صدره. يقول توفيق الحكيم إن الأسلوب الفنّي هو عنصر علوي سام يمثّل انعكاس أسلوب الخالق في نفس المخلوق فكأن الله سبحانه إنما أودع في الإنسان أثراً من أسراره في الخلق حين خلقه وصوّره، ثم يقول: وهو - أي الأسلوب - مزاج الفنان وطبيعته ووسيلته الخاصة في إظهار مكنون فكره، وإن الكاتب إذا يخلو إلى نفسه وقلبه، ويترك التصنع والتقليد يستطيع أن يهتدي إلى أسلوبه^(١٩).

المبحث الثالث: أقسام القصة

إن القصة من حيث القالب والشكل والمظهر تنقسم إلى أقصوصة وقصة ورواية وحكاية، ومن حيث الطول والقصر تنقسم إلى النوادر ويمكن تسميتها بالأقصوصة، والقصة القصيرة وهي أطول قليلاً من الأقصوصة، والرواية وهي قصة ذات أبواب وفصول تطول حتى تستغرق أحياناً عدة مجلدات^(٢٠) وليس بين هذين القسمين فرق أساسي يجعل بينهما التضاد والتعارض.

وقد تنقسم القصة إلى قصة دينية وقصة شعبية، أما القصة الدينية فمادتها القصص الدينية الواردة في الكتاب والسنة والسيرة وكتب التفسير وشروح الحديث وكتب التصوف وهي تقصد إلى الوعظ والإصلاح والتخلّص من المعاصي، وأما القصة الشعبية فمادتها القصص التاريخية والأدبية والحكايات الشعبية. تقوم التقسيمات المتقدمة على خلفية أدبية فنية، فتسمى بتقسيم خاص لأنها تقوم على وجهة نظر معيّنة، وأما التقسيم العام فهو تقسيم القصة إلى: القصة القرآنية وغير القرآنية. وأما الفرق بين القصة والأقصوصة والحكاية والتاريخ والرواية فهو كالتالي:

القصة والأقصوصة والحكاية والتاريخ والرواية والفرق بينها:

ذكرنا آنفاً أن القصة عرض لفكرة مرّت بخاطر الكاتب أو تسجيل لصورةٍ تأثر بها أو بسط لعاطفة جاشت في صدره فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهان القراء، محاولاً أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه. أما الأقصوصة فهي قصة قصيرة تصوّر جانباً من الحياة الواقعية يستهدف الكاتب فيها تحليل حادثة معيّنة أو شخص أو ظاهرة من الظواهر أو بطولة من البطولات التاريخية، وقد لا يعنى فيها بالتفاصيل ولا يلتزم ببداية ونهاية كما يفعل في القصة والرواية، وقد تدور

١٩- المرجع السابق، ص ٣٦.

٢٠- توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، ص ١١٣، القاهرة.

حول مشهد أو حالة نفسية أو لمحة محدودة، ويمكن لذلك كله أن تقرأها في جلسة واحدة خلال فترة قصيرة^(٢١) ولعل الفرق الجوهرى بين الأقصوصة والقصة، أن الأولى: تُبنى على موجة واحدة الإيقاع بينما تعتمد القصة على سلسلة من الموجات الموقعة تتوالى في مداها وجزرها، ولكنها أخيراً تنتظم في وحدة كبيرة كاملة^(٢٢).

والحكاية تساق منها واقعةً من الوقائع الحقيقية أو الخيالية الأسطورية أو الخرافية دون التزام بقواعد الفن القصصي وغالباً ما تتضمّن "النوادر" و "الخرافات والأساطير" وتنتشر على أفواه الناس، وربما كان خير مثال لها في الأدب العربى ما نقل من كتب مثل كليلة ودمنة لابن المقفّع والبخلاء للجاحظ^(٢٣) وقيل الحكاية هي: سوق واقعةٍ أو وقائعٍ أو قصة خيالية بعيدة عن قواعد الفن الرفيعة يرسل فيها الكلام إرسالاً، والحكايات في الغالب تكون منقولة على أفواه الناس^(٢٤). إذن الفرق بين القصة والحكاية واضح وهو أن الحكاية لم تراعى الجمال الفنى في إلقائها كما أنها لا تلتزم الكتابة في عرضها، بل إن عرضها باللسان أكثر وأنسب لها، واختلاطها بالخيال أقل من اختلاط القصة به.

والتاريخ في الاصطلاح جملة الأحوال والأحداث التي يمرّ بها كائن ما، ويصدق على الفرد والمجتمع كما يصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية فالفرق بين القصة والتاريخ يكاد لا يكون موجوداً، إذ موضوع كل منهما واحد، وأبرز عناصرها هي الأحداث، إلا أن الأحداث التاريخية في أصلها هي الأحداث الواقعة في العصور الماضية المنقولة من جيل إلى جيل يليه إلى الزمن الحاضر، أما القصة فليست الأحداث المقصودة فيها مشيدة وقاصرة على الأحداث الواقعة وإنما قد تتعدى إلى الأحداث الخيالية، وللقصة أسلوب خاص بها يستغني عنه التاريخ.

وأما العلاقة بين القصة القرآنية والتاريخ فيقول فيها الإمام الشهيد حسن البنا أن علم التاريخ الاصطلاحى لا يمكن أن يأتي بحقيقة تخالف ما جاء في قصة من القصص التي ذكرها القرآن الكريم^(٢٥). وأما العجز عن الوصول إلى ما ذكره القرآن الكريم بالوسائل الفنية المجردة أو بعلم التاريخ

٢١- طه حسين وآخرون: التوجيه الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٨.

٢٢- عزيزة: القصة والرواية، ص ١٣.

٢٣- محمد يوسف نجم: فن القصة، ص ٨٨، القاهرة، دون تاريخ.

٢٤- انظر: طه حسين وآخرون: التوجيه الأدبي، ص ١٨، ١٩.

٢٥- السيد عبد الحافظ عبد ربه: المرجع السابق، ص ٢١.

فلا يعني ذلك عدم صحة ما جاء في القرآن الكريم، فليس انتفاء العلم بالشيء دليلاً على عدم وجوده. والحبكة القصصية هي أحد الأساليب التي من أجلها تعرض الواقعة التاريخية في القرآن الكريم على هذا فلا يقعن في ظن أحد أن كل معطيات القرآن التاريخية تحمل طابعها القصصي وتطغى فيها النزعة الجمالية على المضامين.

المبحث الرابع: مكانة القصة القرآنية

إن الهدف السامي لقصص القرآن سواء في موضوعه أو حوارهِ أو صراعه هو الهداية والدعوة إلى الحق. والقصة القرآنية تهدف إلى إثبات وحدة الألوهية ووحدة الدين ووحدة هدايات الرسل ووحدة طرائق الدعوة ووحدة المصير، ومن ثم فهي وسيلة إلى كل ذلك. والقصة القرآنية تتعرض للأخلاق الفاضلة وتدعو إليها بصور متنوعة. وبالجملة يمكن القول: "إن القصة القرآنية من طرق التربية على الحق والخير ومكارم الأخلاق، وهي مهمة غاية الأهمية في توضيح علاقات الإنسان الخلقية والروحية بأخيه الإنسان. وذلك مع بلاغة الأسلوب، ودقة المعاني، وصدق ما تهدف إليه، وفي قصص القرآن الكريم نجد الأهداف التربوية واضحة، ذلك أن شخصيات هذه القصص واقعية صالحة لكل عصر.

إن القصة في القرآن الكريم ليست عملاً فدياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمى إلى أداء غرض فني طليق، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية^(٢٦). ويبين الإمام الجليل أحمد المعروف بشاه ولي الله الدهلوي الحكمة من قصص القرآن فيقول: "ليعلم أن المقصود من نزول القرآن تهذيب طوائف الناس من العرب والعجم والحضر والبدو، فافتضت الحكمة الإلهية أن لا يخاطب في التذكير بآلاء الله تعالى بأكثر مما يعلمه أكثر أفراد بني آدم، ولم يبالغ في البحث والتفتيش مبالغة زائدة... واختار من أيام الله تعالى، يعني الوقائع التي أحدثها الله عز وجل كتنعيم المطيعين وتعذيب العصاة، ما قرع سمعهم، وذكر لهم إجمالاً مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود، وكانت العرب تتلقاها أباً عن جد، ومثل قصص إبراهيم وأنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، فإنها كانت مألوفة لأسماعهم لمخالطة اليهود العرب في قرون كثيرة، لا القصص الشاذة غير المألوفة، ولا أخبار المجازاة بين فارس والهند، وانتزاع من القصص المشهورة جملًا تنفع في تذكيرهم، ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها. والحكمة في ذلك أن العوام إذا

٢٦- طلعت عفيفي: مختارات من القصص الصحيح في السنة النبوية، ص ٣٣، ١/ ط، القاهرة، ١٩٨٨م،

وسيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١١٧، دار الشروق.

سمعوا القصص النادرة غاية الندرة، أو استقصى بين أيديهم ذكر الخصوصيات، يميلون إلى القصص نفسها، ويفوتهم التذکر الذي هو الغرض الأصلي فيها(٢٧).

وأنت إذا لاحظت تجد أن القصة في كتاب الله عزّ وجل تشتمل على أرقى درجات البلاغة وأعلى أساليب البيان، من العبرة والدقة والصدق، والوفاء بالمطلوب ووضوح القصد، لما أشار الله عزّ وجل وذكره من ثمار هذه القصة من التأسّي بالأنبياء والمرسلين، فإن قصص الأنبياء إنما تُذكر للتذکر والافتداء بهم.

وبالإضافة إلى ذلك إنها سجلٌ كامل حافل لكل أنواع التعبير الأدبي من حوار وسرد ووصف، وإحياء للشخصيات وتصوير رائع لحركة الشخصية وجودة الرسم والدقة لتبنيان الملامح ثم تأتي اللحظة الحاسمة في القصة لتخترق القلب الإنساني فتوجّهه إلى الوجهة الإسلامية الصحيحة(٢٨).

والقصة القرآنية لون من ألوان الهداية في هذا الكتاب المعجز، ولعل من أبرز ميزات التي حار المبدعون فيها أنها تجمع صدق الوقائع التاريخية مع جلال العبرة، وجمال العرض والتصوير، فهي تبلغ غاية الروعة والجمال في الأداء وإصابة المغزى، وهي في الوقت نفسه تحكي الوقائع كما هي من غير زيادة ولا نقصان، وهذا هو سرّ الجمال في هذه القصص، وصدق الله عزّ وجل حيث يقول: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ (٢٩). إن القصة القرآنية نموذج فريد في هذا اللون القصصي مع أنها قبل هذا وذاك وسيلة إصلاح وهداية وعظة وعبرة.

ومن مكانة القصة في القرآن الكريم هي أنها تلعب دوراً هاماً في تحقيق الهداية للقوم المؤمنين وفي تخويف أولئك العتاة المجرمين. وقد دل التاريخ على ذلك فإذا وعى القرآن الكريم قصص الأولين مع أنبيائهم وجدد على الناس ذكرها بعد ما طوت الليالي أصحابها فلكي يداوي عللاً متشابهة وقد كثرت القصص لتعالج جملة كبيرة من الأمراض الاجتماعية، وتستأصل جرثومتها بصنوف العبر وشتى النذر(٣٠).

٢٧- الإمام أحمد المعروف بشاه ولي الله الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير، ص ٣٢، ٣٣، ناشر إشاعت إسلام كتب خانة محله جنكي بشاور.

٢٨- محمد قطب عبد العال: نظرات في قصص القرآن، ص ٤٠-٤١، إدارة الصحافة والنشر برباطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

٢٩- سورة آل عمران، الآية: ٦٢.

٣٠- محمد الغزالي: نظرات في القرآن، ص ١١٦، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

لقد عرض القرآن الكريم نماذج متعددة للرسول مع أممهم ليعالج أمراض النفوس وهو يحكي حال المجتمعات التي طواها الماضي كيف عاشت؟ وكيف كانت استجابتها لدعوة أنبيائها؟ إذن للقصة في القرآن الكريم مكانة سامية لأنها تلعب دور المنفذ في تنفيذ ما يهدف إليه القرآن الكريم من العبرة والعظة والهداية والبشارة والإنذار.

المبحث الخامس: أقسام القصة القرآنية:

قسم الأستاذ صلاح عبد الفتاح الخالدي القصة القرآنية إلى قسمين:

١- قصص الأنبياء والمرسلين.

٢- قصص غير الأنبياء والمرسلين.

أما قصص غير الأنبياء والمرسلين فتتنقسم إلى قسمين:

١- قصص بني إسرائيل، كقصة قارون وطالوت، وقصة البقرة وقصة أصحاب السبت والتهيه وغير ذلك.

٢- قصص السابقين من غير بني إسرائيل، كقصة أصحاب الكهف وذى القرنين، وقصة لقمان وأصحاب الفيل، ونبأ ابني آدم عليه السلام^(٣١).

وتنقسم قصة القرآن عند مناع خليل القطان إلى ثلاثة أقسام:

١- قصص الأنبياء والمرسلين وهي حديث عن أحوالهم الخاصة، وأحوالهم مع أسرهم وأحوالهم مع أمتهم، والمعجزات التي أيدهم الله عز وجل بها، كقصة نوح، وقصة إبراهيم، وموسى، وهارون وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، وقد سمى الأستاذ محمد قطب هذا النوع من القصة، في كتابه منهج الفن الإسلامي بالقصة التاريخية الواقعة المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها.

٢- قصة قرآنية تتعلق بحوادث الأمم الماضية، وبعض الصالحين الذين لم تثبت نبوتهم كقصة طالوت وجالوت، وأصحاب الكهف وذى القرنين وأصحاب السبت، ومريم عليها السلام.

٣- قصة قرآنية تتعلق بالحوادث الواقعة في زمن خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد صلى الله عليه وسلم، كقصة الإسراء والمعراج، والهجرة والغزوات وقصة زينب بنت جحش ونحو ذلك^(٣٢).

٣١- صلاح عبد الفتاح الخالدي: مع قصص السابقين في القرآن، ص ١١، ١٢، الطبعة الأولى، دار القلم،

دمشق، ١٩٨٨م.

٣٢- مناع خليل القطان: مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ.

وهناك تقسيم آخر للقصة القرآنية سمّاه بعض المهتمين بها بـ: اللون القصصي في القرآن الكريم، وهو أيضاً ثلاثة ألوان:

١- القصة التاريخية:

وهي التي تدور حول شخصيات من الماضي، كالأنبياء والمرسلين، ولكن القصد منها ليس ما يقصد إليه التاريخ، لأنها قد تترك تحديد الزمان، وذكر المكان وتسمية الشخصيات والتعريف المعتاد بمن تذكر أسماءهم من هؤلاء الأشخاص، وهي طبعاً تتفق مع التاريخ في بعض تصوراته الأساسية ولكنها تخالفه في تنسيقها وكيفية عرضها وفلسفتها وحقيقتها(٣٣).

٢- القصة التمثيلية:

ويقصد بها البيان والإيضاح أو الشرح والتفسير ولكن ليس بالضرورة أن تكون أحداثها قد وقعت كما ليس من الضروري أن يكون الأشخاص المذكورون في القصة موجودين في الواقع أو أن يكون قد حصل بينهم حوار في حقيقة الأمر، وإنما يكتفى في كل ذلك بالغرض والخيال.

٣- القصة الأسطورية:

وهي تختلف عن كلا اللونين السابقين، حيث أنها ليست أحداثاً تاريخية واقعية تناولها القرآن ورتبها ترتيباً يحقق الغاية من إيرادها، وليست قصصاً تمثيلية أحداثها مفروضة أو متخيلة، وإنما هي قصة بأكملها، وهو اسم ينفر منه بعض العلماء وأجازه آخرون. وهذا اللون من القصة لا يمكن إثباته أبداً في القرآن الكريم، لأن الأسطورة عبارة عن قصة خرافية صاغها الإنسان البدائي الأول على حسب ما أوحاه له خياله الضعيف فتعالى الله عز وجل أن يرد في كلامه الحق أي نوع من الخيالات الضعيفة أو الخرافات الباطلة، ولا يمكن أن يتصور مسلم أن في القرآن أساطير وخرافات.

ثم إن القصة القرآنية عند الأستاذ محمد قطب، بيانها كالتالي:

١- القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها، ومن هذا النوع كل قصص الأنبياء وقصص المكذّبين بالرسالات.

٢- القصة الواقعية التي تعرض نموذجاً لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك النموذج، مثل قصة آدم عليه السلام وقصة ابنه.

٣- القصة المضروبة للتمثيل: والتي لا تمثل واقعة بذاتها، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة وأي عصر من العصور، ومثال ذلك قصة صاحب الجنيتين المذكورة في سورة الكهف.

٣٣- الطاهر أحمد مكّي: القصة القصيرة، دراسة ومختارات، ص ٢٦-٢٨، دار المعارف، القاهرة.

تنوع القصة القرآنية وتعددتها في صورها من طويلة إلى قصيرة:

أ- القصة الطويلة: من هذا النوع قصة يوسف عليه السلام.

ب- القصة القصيرة: لقد اشترط العلماء لها شروطاً، بعضها مايلي:

١- أن تكون القصة مركزة غاية التركيز في تعبيراتها.

٢- أن تكون القصة ذات بداية وقمة ونهاية.

٣- ألا تكون كثيرة الأشخاص.

ج- القصة ذات اللمحة الخاطفة: هذا أيضاً لون من ألوان القصص القرآني كما نرى في مقام الامتنان

إذا كان الجزاء من جنس العمل، فإننا نرى القصة القرآنية تميل إلى الإيجاز والإشارة الخاطفة تذكيراً

للنبي صلى الله عليه وسلم بتلك المنن التي من الله عز وجل بها على رسله من ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ

وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (٣٤) فليس الهدف هنا القصة، وإنما الهدف

بيان رضا الله عز وجل عن عبده ورسوله موسى عليه السلام لإخلاصه فاجتباه ووهب له الرسالة

واصطفاه نبياً، وحباه بكلامه وزاده بركة بجعل أخيه هارون نبياً (٣٥).

ه- القصة الحوارية: وهي التي تحكي حواراً بين شخصين كما في قصة موسى عليه السلام مع فرعون.

قال فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ في تجاهل واستخفاف.

قال موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ والهداية كل بر فمن حرمها فلا فائدة

ترجى منه.

قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾؟

قال موسى: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾.

قال فرعون: ﴿قَالَ أَجِدْتَنَا لُتْخَرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَّى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ

يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى﴾ (٣٦).

٣٤- سورة مريم، الآيات: ٥١، ٥٣.

٣٥- انظر: محمد عمر باحاذق: أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني، ص ٢٣٤، دار المأمون للتراث.

٣٦- سورة طه، الآيات: ٥٧ - ٥٩.

وقد تكون حكاية الحوار بين شخصية إنسانية وأخرى من فئة الطير كما في حوار الهدهد مع نبي الله عز وجل سليمان عليه السلام في سورة النمل.

وقد تكون المحاوره نفسية ذاتية كما في الحوار الداخلي الذي أجراه إبراهيم مع نفسه لبيان أخطاء قومه في عبوديتهم لغير الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ (٣٧).

القصة القرآنية بين التوحيد والتكرار:

نلاحظ في القصص القرآنية أن هناك قصصاً قد كررت وقصصاً لم تكرر، فما السر في هذا؟ ولعل السر في عدم التكرار لتلك القصص التي لم تكرر أن جميع هذه القصص، إنما قصد بها مجرد الإعلام والإخبار، وهذا يحصل في المرة الواحدة، فلا حاجة إلى التكرار في مثل هذه القصص. من هذه القصص قصة الذي مر على قرية، قال الله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣٨) ففي هذه القصة يلاحظ أن الهدف منه هو مجرد الإعلام والإخبار بما جرى لصاحب القرية، وفي هذا أعظم دليل على البعث والنشور والخروج من القبور، ومثل هذه القصص جاء للإخبار والإعلام، وهذا يتحصل بالمرّة الواحدة، من هنا لم يكن داع إلى التكرار ومن هذا النوع قصة أصحاب الكهف وذي القرنين وقصة المحاجة التي جرت بين سيدنا إبراهيم عليه السلام والذي حاج في ربه، لم يقصد بها سوى إعلام النبي صلى الله عليه وسلم بأخبار هؤلاء القوم وهذا يحصل العلم به بالمرّة الواحدة (٣٩). يقول الشاه ولي الدهلوي: "ومن القصص التي ذكرت مرة أو مرتين فقط: مناظرة سيدنا إبراهيم لنمرود، ورؤيته إحياء الطير، وذبح ولده، وقصة سيدنا يوسف وقصة ولادة سيدنا موسى، وإلقائه في اليمّ... وقصة التقاء موسى والخضر، وقصة طالوت وجالوت، وقصة بلقيس، وقصة ذى القرنين، وقصة أصحاب الكهف، وقصة أصحاب الجنة... والمؤمن الذي

٣٧- سورة الأنعام، الآية: ٧٦.

٣٨- سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

٣٩- انظر للتفصيل، عمر محمد عمر: أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني، ص ٢٣٩-٢٤٠ (بتصرف قليل).

قتله الكفار شهيداً، وقصة أصحاب الفيل، فليس المقصود من هذه القصص معرفتها بأنفسها، بل المقصود انتقال ذهن السامع إلى وخامة الشرك والمعاصي وعقوبة الله تعالى عليها، واطمئنان المخلصين بنصر الله تعالى، وظهور عنايته عزّ وجل بهم^(٤٠).

وأما القصص التي كررت، فهذه كثيرة في القرآن الكريم، نقول: كررت هذه القصص للعظة والعبارة والتسليية والترويح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. والعجيب أنه مع تكرار أحداث القصة بهذا الأسلوب المتميز عن الآخر لا يمل منه السامع، بل على العكس من ذلك نراه يزداد شوقاً ويجدد في نفسه معاني آخر ربما لم تحصل له من قبل فيما عرض من أسلوب سابق. كما أن هذا التكرار طريق من طرق تأكيد المعنى في النفس واستقرارها في خواطر القارئ والسامع^(٤١).

وبقي أن نبيّن أن التكرار لم يقع في القرآن الكريم مطلقاً، وإنما التكرار وقع على بعض الحلقات في القصة ليس فيها كلها فورود القصة الواحدة - في معظم الحالات - مكررة في مواضع شتى لا يتناولها كلها - غالباً - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ومعظمه إشارات لموضع العبرة فيها أما جوهر القصة كلها فلا يكرر إلا نادراً، ولمناسبات خاصة في السياق اقتضاها الموقف الذي نزلت فيه، وهذا ما يؤكد علماء التفسير عند ذكرهم أسباب النزول لكل قصة على حدة، وإن كانت جميعها متداخلة أو تمثل مرحلة واحدة. ويقول الإمام الدهلوي: "ومما تكرر من القصص قصة آدم من الأرض وسجود الملائكة له، وامتناع الشيطان منه وكونه ملعوناً، وسعيه بعد ذلك في إغواء بني آدم، وقصة مخاصمة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام وأقوامهم في باب التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وامتناع الأقوام من الإمتثال بشبهات ركيكة مع ذكر جواب الأنبياء، وابتلاء الأقوام بالعقوبة الإلهية، وظهور نصرته عزّ وجل للأنبياء وتابعيهم، وقصة موسى مع فرعون وقومه، ومع سفهاء بني إسرائيل، ومكابرة هذه الجماعة حضرته عليه الصلاة والسلام، وقيام الله سبحانه وتعالى بعقوبة الأشقياء، وظهور نصرته نبيّه مرة بعد مرة، ... وقصص سيدنا عيسى العجيبة، من تولده بلا أب، وتكلمه في المهدي، وظهور الخوارق منه، فذكرت هذه القصص بأطوار مختلفة، إجمالاً وتفصيلاً بحسب ما اقتضاه أسلوب السور^(٤٢).

٤٠- الشاه ولي الله الدهلوي، المرجع السابق، ص ٣٥.

٤١- عمر محمد عمر: أسلوب القرآن ... (السابق).

٤٢- الشاه ولي الله الدهلوي، المرجع السابق، ص ٣٤.

وإن الإنسان حين يقرأ هذه الحلقات المكررة من القصة الواحدة ملاحظا السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً في اختيار الحلقة وفي طريقة عرضها، وهذه المناسبة تتضح حين تقرأ حسب ترتيب نزولها، فمعظم القصص يبدأ بإشارات مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً، ثم تعرض حلقات كبيرة تكون في مجموعها جسم القصة، وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيها بين عرض هذه الحلقات الكثيرة عند المناسبات، حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هي كل ما يعرض منها، ومثال ذلك قصة موسى عليه السلام فهي أكثر القصص القرآنية تكراراً إذ أنها وردت في حوالي ثلاثين موضعاً من القرآن الكريم، وهي من هذه الجهة تعطي فكرة كاملة عن هذا التكرار غير المطلق لأن في كل منها إشارة معينة قد تطول وقد تقصر، وهي في هذا وذاك متلونة عما في الأخرى، ذلك لأن التكرار فيها أغلبه إشارات وعظية اقتضاها السياق، أما الحلقات الأساسية فلم تكرر تقريباً، وإذا كررت حلقة منها جاءت بشيء جديد مما يتنافى وجود التكرار في القرآن الكريم، أو في قصصه على وجه الخصوص.

المبحث السادس: خصائص فنية في القصة القرآنية:

هناك خصائص فنية عامة تحقق الغرض الديني للقصة عن طريق جمالها الفني، وهذا الجمال يجعل ورودها إلى النفس أيسر، ووقوعها في الوجدان أعمق، وهذه الخصائص تمثلها أربع ظواهر فنية هي:

أولاً: تنوع طريقة العرض:

اختلفت أساليب العرض في الفن الأدبي تبعاً لاختلاف الأغراض والمقاصد، لأن أسلوباً ما من أساليب العرض - أو أكثر - قد يكون أكثر ملاءمة لأداء هذا الغرض، أو الوصول إلى ذلك المقصد من سائر الأساليب الأخرى. وأغراض القصة القرآنية - على تنوعها وتعددتها - لا تخرج عن غرض ديني واضح، أو عن غرض الاهتداء والاعتبار والدعوة إلى توحيد الله والإيمان به واليوم الآخر. فلخضوعها للغرض الديني تركت آثاراً بارزة في طريقة عرضها(٤٣).

هناك أربع طرائق مختلفة جرى عليها النهج القرآني في عرض قصصه، وذلك من ناحية التلخيص والتفصيلات، فمرة يذكر ملخص القصة أولاً ثم تعرض التفصيلات بعد ذلك ويستمر العرض هكذا من البدء إلى النهاية، وذلك كطريقة عرض قصة أهل الكهف فهي تبدأ كآلاتي. ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ

٤٣- انظر: عدنان محمد زرزور: علوم القرآن، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٢٣٣.

الْحَزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا ﴿٤٤﴾ ذلك ملخص للقصة ثم تتبعه التفصيلات التي تحكى تشاورهم قبل دخول الكهف وحالتهم فيه - نومهم ويقظتهم - ثم إرسالهم واحدا منهم ليشترى لهم طعاما وكشفه في المدينة وعودته. ثم موتهم وبناء المعبد عليهم واختلاف القوم في أمرهم ... إلخ، فكان هذا التلخيص بمثابة مقدمة مشوقة لتلك التفصيلات العديدة. ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها ثم تبدأ القصة من بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها، وذلك كقصة موسى عليه السلام في سورة القصص وفيها نجد المقدمة كاشفة عن الغاية من القصة في الوقت الذي تمهد فيه لمعرفة الطريق التي تتحقق بها تلك الغاية المرسومة. ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة، مثل قصة مريم عند مولد عيسى عليه السلام.

ومرة تتجه طريقة العرض إلى إحالة القصة تمثيلة حوارية فيها الحوار وفيها المشاهد فيذكر من الألفاظ ما ينبه الأذهان إلى ابتداء القصة، ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بوساطة أبطالها، وذلك كالشهد الذي نجده في قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (٤٥).

ثانياً: تنوع طريقة المفاجأة:

والقرآن الكريم إذ يسلك هذا المسلك وإنما يعنى بسر المفاجأة من زاويتين: زاوية البطل وزاوية النظارة، فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة حتى يكشف لهما معا في آن واحد، كما في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح.

ومرة يكشف السر للنظارة ويترك أبطال القصة عنه في عمية انتظاره، وإن هذا إنما يكون في موضع يتطلبه وهو معرض السخرية من تصرفات الممثلين، ونرى هذا جليا في قصة أصحاب الجنة حيث قال الله تعالى فيهم: ﴿... إِذِ اقْسَمُوا لِيَصْرِمُوهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٤٦﴾. وبينما يكشف هذا للنظارة فإن أصحاب الجنة أنفسهم كانوا به جاهلين كما قال الله تعالى: ﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ أَنْ ائِدُوا عَلَى حَرُوكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مُسْكِينٌ وَعَدُوا عَلَى حَرِدٍ قَادِرِينَ ﴿٤٧﴾.

٤٤- سورة الكهف، الآية: ٩ - ١٢.

٤٥- انظر: حفني محمد شريف: إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، الجمهورية العربية المتحدة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص ٣١٠-٣١١.

٤٦- سورة القلم، الآية: ١٧ - ٢٠.

٤٧- سورة القلم، الآية: ٢١ - ٢٥.

وقد ظللنا نحن النظارة نسخر منهم وهم يتنادون ويتخافتون، والجنة حاوية كالصريم حتى انكشف لهم السر أخيراً بعد أن شبع النظارة منهم سخرية وتهكما.

ومرة لا يكون هناك سر بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد، ويعلمان سرها في الوقت نفسه، وذلك كمفاجأة قصة مريم عليها السلام حين تتخذ من دون أهلها حجاباً فتفاجأ هناك بالروح الأمين في هيئة رجل خافته فأعلمها وطمأنها قائلاً أنا رسول ربك.

ثالثاً: فجوات القصة:

وهذه خصيصة فنية الثالثة في عرض القصة، وتبدو في ترك فجوة يملؤها الخيال بين كل مشهدين أو حلقتين، ويستمتع باقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق، وأوضح مثال لها قصة يوسف عليه السلام فالقارئ لهذه القصة في سورتها يجد مشاهد متعددة يفصل كل مشهد عن غيره بفجوة قصيرة لا يلبث أن يأتي المشهد الأخير عقبها ليسير خطوة إلى الأمام وهكذا^(٤٨).

رابعاً: التصوير في القصة:

إن عملية التصوير البياني تستغل في الإنسان ملكة التصور والتخيل الذهني، حين يستحضر الصورة التي يسمعاها أو يقرأها في كلمات القصة بحيث تصبح مجسدة بكامل أبعادها في ذهنه ومخيلته، والقصة في القرآن الكريم معروضة بطريقة التصوير التي حيث تتحول القصة بهذه الطريقة إلى حادث يقع، ومشهد حي يتحقق، وحركات فنية مؤثرة يقوم بها أبطال القصة وأشخاصها^(٤٩) ويقول الأستاذ محمد قطب عبد العال: "ومن أجل أن تحدث القصة الأثر المطلوب فلقد برز عنصر التصوير كأسلوب موصل إلى تحقيق الغرض الديني من القصة، فهو يعبر بالصورة الحية المحسوسة عن الموقف والحالة النفسية، وعن النموذج الإنساني، والطبع البشري، حتى تبدو الصورة المحسوسة حياة شاخصة متجددة الحركة، فضلاً عن نبض وسخونة القصص بحوادثها ومشاهدها ومناظرها وحوارها"^(٥٠).

٤٨- انظر: حفني محمد شريف: نفس المصدر، ص ٣١٣ (بتصرف).

٤٩- صلاح عبد الفتاح الخالدي: البيان في إعجاز القرآن، الطبعة الثانية، دار عمار، ١٩٩١م، ص ٢٢٠.

٥٠- محمد قطب عبد العال: نظرات في قصص القرآن، إدارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامي،

مكة المكرمة، ١٩٨٦م، ص ٥٠.

وهذا التصوير له ألوان عديدة في مشاهد قصص القرآن، فلون يبدو في قوة العرض والأحياء، عندما يقرأ القارئ القرآن الكريم، أو يسمعه السامع، خصوصاً في الآيات القصصية، فإن كثيراً ما يحدث أن ترسم في مخيلته مشاهد فنية، يبدو فيها أبطال القصة وأشخاصها، يتحركون يتكلمون ويتجادلون، ويتحاورون ويفرحون ويتألمون، ويبدو فيها مسيرهم، والأحداث الواقعة بينهم كأنها تقع أمامه ويراهم رأي العين.

ويرى الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي أنه - أي العرض - سمة بارزة من سمات التصوير في القصة، ولون ظاهر من ألوانه فيها، فما يكاد القارئ يتلو نصوص قصة من القصص القرآنية، حتى ترسم أمام عينيه مشاهد القصة وحوادثها ومناظرها معروضة عرضاً فنياً، متناسقة تناسقاً قوياً، ويذهب بخياله مع هذه المشاهد مستمتعاً متخيلاً متأملاً متذوقاً^(٥١).

وهذا واضح جدا في قصة أصحاب الكهف، فبينما نجدهم يتشاورون في أمرهم بعدما اهتموا إلى الله عز وجل بين قوم مشركين إذ بالمشهد ينتهي فيستدل الستار، ثم يرفع مرة أخرى ليذكرهم وقد نفذوا ما عزموا عليه، واهتدى أمرهم إليه، فما هم أولاء في الكهف تراهم رأي العين. ولا غرو فإن التعبير القرآني والتصوير الرباني لا يدع شكاً في أنك تراهم يقيناً: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾^(٥٢). انظر إلى كلمة تزاور و قف عندها قليلاً، فإنك لا شك واجد هذه الحركة المتماوجة عياناً، فإنه يعجز عن تصوير هذا التماوج الذي صورته اللقطة في سهولة غريبة^(٥٣).

أما اللون الثاني من ألوان التصوير في القصة القرآنية فيكون في تصوير العواطف والانفعالات، فعندما نتلو آيات القرآن الكريم التي ترسم مشاهد قصة من القصص بحوادثها وأشخاصها وأبطالها، ونرى العواطف المختلفة كالحب والكره، أو الفرح والألم، أو الشكر والبطر واضحة على ملامهم، وكذلك الانفعالات، كالدعشة والمفاجأة، أو الغضب والرضى، فإنها مرسومة مجسمة بارزة على وجوههم.

٥١- صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، الطبعة الأولى، دار الفرقان، عمان،

١٩٨٣م، ص ٢٣٣.

٥٢- سورة الكهف، الآية: ١٨.

٥٣- انظر: حفني محمد شريف، نفس المصدر، ص ٣١٤.

ويظهر هذا اللون في قصة مريم عليها السلام عند ميلاد عيسى عليه السلام، فعندما ينزل عليها الروح الأمين يخبرها أنه سيهب لها غلاما زكيا فتقول: ﴿أَنْتَى يَكُونُ لِي غُلَامًا وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾. هكذا صراحة بالألفاظ المكشوفة، وما يخفف من روعة الموقف أن يقول لها، ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ ثم تمضي القصة في طريقها لتعرض موقفا آخر يختلف عن الموقف الأول إلى مدى بعيد، فهي وإن كانت موقفها الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة، ثم هي تواجه آلاما جسدية بجانب الآلام النفسية، تواجه الألم الجسمي الحاد الذي فاجأها فجعلها تلجأ إلى جذع النخلة، وهي وحيدة فريدة، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض، ولا علم لها بشيء، ولا معين لها في شيء، فإذا هي قالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا﴾ فإننا نكاد نرى ملامحها، ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الألم فيها. وهكذا نجد القصة القرآنية مليئة بالمواقف التي تفيض عاطفة، وتمتلئ بالانفعالات والإثارات بما لا تتساوى أو ترقى إليه قصص البشر مهما تمتعت بحسن السبك وقوة العبارات.

وأما اللون الثالث فلا تقل أهميته عن غيره من الألوان وهو رسم الشخصيات في القصة وإبرازها.

والقرآن الكريم الذي وجهته الأولى هي الدعوة الدينية نراه يلم في الطريق بهذه السمة التي تتجاوز حدود الشخصية المعنية إلى الشخصية النموذجية، ولا غرو فنحن لم ننس أغراض القصص القرآني بقدر.

ونعرض نموذجا أخذت فيه الشخصية مكانها المرموق في القصة وهي شخصية موسى عليه السلام، وهو نموذج للزعيم الشديد ولا أدل على ذلك من وكزه الرجل فقضى عليه، ولكن سرعان ما تذهب هذه الشدة، فيعود إلى نفسه شأن الأقوياء ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (٥٤) ولكنه خائف مترقب في هيئة المتفرع المتلفت المتوقع الشر في كل حركة لأنه خائف، وبرغم أن الرجل تداركه قائلا ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ فيرجع عن اندفاعه، ويرحل عن المدينة، تلك الشخصية بارزة، ونموذج إنساني واضح في كل مرحلة من مراحل القصة جميعاً.

فإذا أردت لهذه الشخصية الشديدة مقابلاً فإنك واجد شخصية إبراهيم عليه السلام أنه نموذج الهدوء والتسامح والحلم، وما أصدق قول القرآن فيه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (٥٥). ويوسف عليه السلام نموذج الرجل الواعي الحنيف الذي يقدر المسؤولية حق قدرها، وإن شخصية آدم أبي البشر عليه السلام تمثل النموذج العام للإنسان ففيها الضعف البشري الأكبر الذي يجمع كل نواحي الضعف الأخرى، فيها الضعف أمام الرغبة في الخلود، وقد لمس إبليس موضع الضعف هذا فاستجاب له آدم، واستجابت له حواء قبله، وقامت بدورها المعهود "الرغبة في الممنوع والاعراض بالمشاركة" فالإنسان الفاني حريص على الخلود أبداً فلما لم ينله كما مناه الشيطان ظل وسيظل يحاوله بشتى الطرق بالنسل وبالذكر وبالخيال وإن لم ينفعه هذا لجأ إلى الدين الذي يضمن له البعث مرة أخرى، ويضمن له نوعاً من الخلود أيضاً، أما شخصية إبليس فهي شخصية الشيطان وكفى (٥٦).

وهذه الألوان الثلاثة قوية العرض والاحياء، وتحتل العواطف والانفعالات ورسم الشخصيات وإبرازها، كل هذه الألوان ليست منفصلة، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف، ويظهر على أخويه فيسمى باسمه أما الحق فإن هذه اللمسات الفنية كلها تبدو في مشاهد القصص القرآنية على وجه العموم.

المبحث السابع: موضوعات القصة القرآنية

إن القصة القرآنية ليست كغيرها من القصص، مجرد قصة تساق للتسلية وإزجاء الوقت، بل هي تشتمل على الموضوعات الشتى من العبادات والمعاملات، والأحوال الشخصية، والعقيدة وتشمل الألوهية والرسالة واليوم الآخر. ثم إن الأساس في القصة القرآنية هو الموضوع، لا الشخصية ولا الأحداث (٥٧) مع أن الشخصية والأحداث هما محور البناء القصصي في العمل الأدبي.

والقصة القرآنية مرتبطة تماماً في موضوعها ومقصدها بسورتها وبظروف السيرة النبوية. فهي تعالج موضوع السورة الرئيسي علاجاً فنياً، محققة لمقصدها في توافق كامل مع ظروف العهد الذي أنزلت فيه. رغم ذلك فلم يكن الاعتبار بها مقصوراً ومقيداً بتلك الظروف، فهي في موضوعها وأحداثها ومقاصدها خاضعة تماماً للمقصد القرآني في الدعوة والتربية.

٥٥- سورة هود، الآية: ٧٥.

٥٦- انظر للتفصيل، حفني محمد شريف، نفس المصدر، ص ٣١٥-٣١٦.

٥٧- محمد شديد: منهج القصة في القرآن، الطبعة الأولى، دار عكاظ للطباعة والنشر، جدة، ١٩٨٤م، ص ٦٤.

إن الموضوعات في القصة القرآنية يمكن إيرادها على حسب طاقتنا إلى القضايا الرئيسية

التالية :

أ- العقيدة:

إن عقيدة التوحيد والوحي واليوم الآخر هي أبرز موضوعات القصة القرآنية وخاصة في سور القرآن المكية. وأهم ما ورد في قضية العقيدة هي وحدانية الله عز وجل، وكان جميع الأنبياء والرسل يدعون إليها، ولكن الحديث في قضية العقيدة ليس مقصوراً على مسألة الوجدانية فحسب وإنما يتوسع إلى مباحث أخرى فيها تحييطها مسألة العقيدة، كالوحي والبعث واليوم الآخر وأسماء الله تعالى وصفاته وغير ذلك.

فلننظر الآن إلى قصة نوح عليه السلام في سورة الأعراف، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٥٨﴾.

هذه القصة تدلنا بوضوح على القضايا العقائدية وأهمها التوحيد فهذا الإله الذي دعا إليه نوح عليه السلام والرسل بعده كلهم هو "رب العالمين" الذي يحاسب الناس في يوم عظيم، وليس رب قوم، أو رب أمة، أو رب جنس، ولم يكن هنالك رسول من عند الله دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعددة، وقد بدأ الرسل كلهم رسالتهم بالكلمة التي بدأ بها نوح عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فهي الكلمة التي لا تتبدل، وهي قاعدة هذه العقيدة، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره، وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط(٥٩).

وهذه القصة داعية إلى عقيدة الآخرة، عقيدة الحساب والجزاء في يوم عظيم، يخاف نوح عليه السلام على قومه ما ينتظرهم فيه من عذاب، يقول صاحب المنار في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذه إنذار مستأنف علل به الأمر بعبادة الله تعالى وحده المستلزم

٥٨- سورة الأعراف، الآيات: ٥٩-٦٤.

٥٩- سيد قطب في ظلال القرآن، المجلد الثالث، الجزء الثامن، ص ١٣٠٤.

لترك أدنى شوائب الشرك بها، وبيان عقيدة البعث والجزاء وهي الركن الثاني من أركان الإيمان بعد التسليم بالرسالة، أي إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إذا لم تمتثلوا ما أمرتكم به، وهو يوم القيامة الذي يبعث الله تعالى فيه العباد ويجازيهم بإيمانهم وكفرهم وما يترتب عليهما من أعمالهم^(٦٠).

وكانت القصص المذكورة في هذه السورة - ماعدا قصة آدم عليه السلام مع إبليس - كلها تتحدث عن قضية العقيدة وخاصة عن وحدانية الله عز وجل.

ب- الرسالة:

إن حاجة البشر إلى الأنبياء والرسول لا شك فيها، لأنهم ممن اصطفاهم الله ليكونوا وسيلة بينهم وبين ربهم في تلقيهم للأمر الغيبية ومعرفتهم لقضاياها المختلفة، وذلك لأن عقل البشر لا يقدر على إدراك تلك الحقائق والوصول فيها إلى المطلوب، أما هؤلاء الأنبياء والرسول الكرام فقد عرفوا تلك الغيبيات بتعليم الله عز وجل مباشرة، أو بوحيه الموحى به إليهم. يقول الله تعالى: ﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾^(٦١).

وإثبات الرسالة والنبوة والوحي غرض من أغراض القصة القرآنية أي أن هذا الدين الذي جاء به الرسل الكرام هو بوحى من الله تبارك وتعالى وأنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز الحكيم^(٦٢). ويقول الأستاذ السيد سابق "الأنبياء جميعا - صلوات الله تعالى وسلامه عليهم - كانت مهمتهم أن ينقذوا الناس، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور، فكانوا دائما دعاة الخير، وأئمة الإصلاح وحملة المشاعل في الدنيا المظلمة، وكان كل واحد منهم يأتي عقب الآخر، ليتم ما بناه من قبله، فيزيد في الإصلاح لبنة حتى استكمل البناء بخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم فكان دينه خلاصة الأديان السابقة، وكانت دعوته هي الدعوة الجديرة بالبقاء، ففيها عناصر الحياة ودعائم الإصلاح"^(٦٣).

وهناك إشارات كثيرة إلى هذا الموضوع - أي الرسالة والنبوة - في القصة القرآنية يقول الله عز وجل في حق رسالة هود عليه السلام: ﴿وَالِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ

٦٠- محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم، المجلد الثامن، ص ٤٩١.

٦١- سورة النحل، الآية: ٢.

٦٢- محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، الطبعة الرابعة، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٣٨.

٦٣- السيد السابق: العقائد الإسلامية، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت، ص ١٩٩-٢٠٠.

إِلَيْهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ ثم يقول: ﴿أَبْلَغَكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٦٤) ويقول في حق رسالة صالح عليه السلام: ﴿وَالِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ ويقول: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَأَتَّخِيبُونَ النَّاصِحِينَ﴾ (٦٥). ويقول في حق لوط عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ (٦٦) ويقول الله تعالى في حق رسالة داود و سليمان عليهما السلام: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (٦٧) ويقول في حق رسالة يونس عليه السلام: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ويقول: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (٦٨).

فالآيات المذكورة تدل على ثبوت الرسالة والنبوة والوحي لهؤلاء الأنبياء والرسل الكرام.

ج- تقويم المشاعر الإنسانية وتعديلها:

لقد قسم القرآن الكريم النفس إلى أقسام ثلاثة: وهي النفس المطمئنة: وهي النفس التي تؤمن بالله وتستحضره في كل مواقف، والنفس الأمامة: هو النوع الثاني المقابل للنفس المطمئنة فهي تتضاد معها وتختلف اختلافاً بيناً، والنفس اللوامة: وهي التي تلوم صاحبها على ما فرط فيه بما لا يرضى ربه، والنفس اللوامة لا تسكن إلا قلب المؤمن بالله المراقب لجلال سلطانه وما يخشى من سطوة عذابه سبحانه وتعالى.

ولقد عالجت القصة القرآنية شروخ النفس ومسالكها المريضة، حتى تضرب للبشر العبرة، وحتى توضح مجالات الصراع المشتجر داخل الذات الإنسانية بين الخير و الشر، وهما قوتان تتصارعان منذ همس إبليس لآدم أن يعصى ربه.

كما عالجت القصة القرآنية جمال النفس واطمئنانها وضربت لذلك نماذج للنفس الخيرة الكريمة، التي تعلق على مفاصد الدنيا وأهواء الذات البشرية، فتعلو ويعلو معها الخير، وتورق وتثمر

٦٤- سورة الأعراف، الآية: ٦٥-٦٨.

٦٥- سورة الأعراف، الآية: ٧٢-٧٩.

٦٦- سورة الأنبياء، الآية: ٧٤، ٧٥.

٦٧- سورة النساء، الآية: ١٦٣.

٦٨- سورة الصافات، الآيات: ١٣٩-١٤٠ و ١٤٧-١٤٨.

معها أغصان الحياة فضائل ومكارم أخلاق. وأن قصة قابيل وهابيل ولدي آدم نموذج فذ - موجز غاية الإيجاز - قيل دفعة واحدة ولم يتكرر كعادة القصص القرآني على حدة الصراع بين قوتي الخير والشر، أو بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء.

ه- بيان القيم الإسلامية:

إن القيم الدينية تبدو في حياة الرسل والأنبياء في دعوتهم إلى الله تبارك وتعالى بين أقوامهم حين تتحدث عن قضية العقيدة الصحيحة والإمساك بها وعد التنازل عن مبادئها مهما تراكمت المتاعب، ومن القيم الدينية التي اعتنت بها القصة القرآنية بيان وحدة الأديان التي دعا إليها الأنبياء، يقول الله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٦٩). ومن القيم الدينية التي عالجتها القصة القرآنية قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقصص الأنبياء والرسل لا تكاد تكون خالية من السمات المتضمنة لهذه القضية فكل منهم يحث قومه على عبادة الله تعالى وحده ويدعوهم إليها ويمنعهم عن عبادة غيره، والإشراك به.

و- بيان القيم الروحية:

تشتمل القصة القرآنية على القيم الروحية أيضاً وتحاول أن توثق صلتنا بالله تبارك وتعالى، ففي آخر ما ذكر من قصة آدم عليه السلام الواردة في سورة الأعراف والبقرة وسورة طه نجد أن آدم وزوجته حواء عليهما السلام قد وقعا فيما وسوس إليهما إبليس، فأكلا من الشجرة قال الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ فَاكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتِهِمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (٧٠). فشعر آدم وحواء بملأا اقترفا من الخطأ ونسيان أمر الله ونهيه عز وجل، فندما أشد الندم وتضرعا إلى ربهما كما بين الله تعالى حالهما بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٧١).

٦٩- سورة البقرة، الآية: ١٣٢-١٣٣.

٧٠- سورة طه، الآية: ١٢٠-١٢١.

٧١- سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

ز- التضحية من أجل العقيدة:

أورد القرآن الكريم الكثير من مواقف التضحية في سبيل العقيدة، ولا شك أن تكرار نماذج التضحية من أجل العقيدة يؤدي إلى ترسيخ العقيدة في نفوس المسلمين، وقصة أصحاب الأخدود وردت في سورة "البروج" التي هي من السور المكية، وهي تتعرض لحقائق العقيدة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثَمَّ لَمْ يُتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (٧٢) قصة أصحاب الأخدود نموذج للتضحية بالنفس من أجل العقيدة، وهي أيضاً وعيد للكافرين وتسلية للمؤمنين.

وقصة رجل مؤمن من آل فرعون نموذج للبطولة المشرقة ضد الطغيان، وهذه البطولة العظيمة تحت على التمسك بالعقيدة الصحيحة والنصح للآخرين مهما كانت الأوضاع سيئة، فهذا الرجل المؤمن قد نصح قومه وهو يعلم أن الموت سيكون مصيره، وعلى الرغم من هذا اتخذ موقفاً قويا وأثبت به أن قوة الإيمان تيار من النور يهدي أصحابه إلى الطريق الحق، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنًا مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ يَلَّا قَوْمَ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ نَادٍ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُثْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٧٣).

٧٢- سورة البروج، الآيات: ١ - ١١.

٧٣- سورة غافر، الآيات: ٢٨ - ٣٣.

فمؤمن آل فرعون لم يستجب لدعوة فرعون ولم يقبله إلهها كما قبله غيره، بل استجاب لدعوة موسى عليه السلام فآمن بالله عز وجل، وها هو الرجل الحكيم يجيء إلى فرعون في ثوب الناصح الأمين طالباً ألا يقتلوا رجلاً مؤمناً يقول ربي الله، ولكن الطاغية فرعون ينكر ما يقول ويرد عليه في تكبر ممقوت بأن رأيه هو الصائب، في قتل موسى عليه السلام.

وتبرز هذه القصة - فضلاً عن التمسك بالعقيدة الصحيحة - أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في باب الإيمان والعقيدة، وذلك لأنه منهج تكافلي يقي المجتمع الشرور والفساد^(٧٤)، وهذه القصة تضع لنا مبدأً تربوياً هاماً وهو أن يجعل المسلم من نفسه حارساً أميناً يقظاً في مجتمعه، ويستشعر بما يجب عليه من الأعمال ويبقي المجتمع خطر الضلال وشر الفساد.

ح- بيان ملامح الحياة الدنيوية والأخروية:

إن القصة القرآنية تتحدث عن قضية الحياة الدنيوية والأخروية بصورة واضحة، ومن قضايا الحياة الدنيا - التي تصورها القصة القرآنية هي - ما جاءت في قصة موسى عليه السلام فإن حياته مثل صورة من صور الرسل والأنبياء والصالحين، وكانت ملامح نبوته وعلامات رسالته قد ظهرت منذ نعومة أظفاره، أيام نشأته في قصر فرعون، وفوق ذلك فإنه صورة شاخصة مشهورة لكل من يتولى دعوة الحق ونشر رسالة الإسلام. وأما فرعون فهو صورة لأخبت الناس وأضلهم، وكان استعلاؤه وادعاؤه الألوهية أقبح سمة من السمات الإنسانية، وأما بنو إسرائيل فهم صورة حية لنمط من النوع الإنساني وأشكاله وأحواله، لأن الإنسان باختلاف زمن حياته وافتراق مواطنه وتطور ثقافته يخلو من مثل تلك الأفعال يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾^(٧٥) وقال تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾^(٧٦) وبنو إسرائيل أشد الناس ظلماً لأنفسهم، وذلك لنسيانهم كل خير فعله الله عز وجل لهم، كنجاتهم من فرعون وجنوده، وإنزال المن والسلوى لهم، وتفجير الماء من الصخر حتى علم كل أناس مشربهم وغير ذلك.

٧٤- انظر للتفصيل: محمد قطب عبد العال، نظرات في قصص القرآن، مطابع رابطة العالم الإسلامي،

مكة المكرمة، ص ٩٥-١٠١، بتصرف كبير.

٧٥- سورة يونس، الآية: ١٢.

٧٦- سورة فصلت، الآية: ٤٩.

وأما موضوع الحياة الآخرة، فلقد اهتم القرآن الكريم كثيراً باليوم الآخر وعرضه عرضاً مفصلاً واضحاً ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم من مشاهد متعددة أو إشارة أو تلميح للحياة الآخرة. ومن الآيات التي تحدثت عن اليوم الآخر والحياة الآخرة وما يتعلق بها قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوبُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧٧) وأما الآيات القصصية التي تشير إلى شيء من ملامح الحياة الآخرة فمن مثالها ما ذكر في قصة فرعون الواردة في سورة هود يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمُورِدُ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنِسِ الرَّفْدِ الْمَرْفُودِ﴾ (٧٨).

بالإضافة إلى ذلك إننا إذا لاحظنا قصة كل نبي ورسول فسندجد أن من ضمن ما دعا إليه الإيمان - العقيدة - بالآخرة، عقيدة الحساب والجزاء في يوم عظيم، يقول سبحانه وتعالى بلسان أنبيائه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة الذي يبعث الله تعالى فيه العباد ويجازيهم بإيمانهم وكفرهم وما يترتب عليهما من أعمالهم.

المبحث الثامن: أغراض القصة القرآنية:

إن القصة في القرآن الكريم لم ترد لمجرد المتعة أو لمجرد الإخبار عن الماضي، بل تمتاز بسموغايتها، وشريف مقاصدها وعلو مراميها، حيث اشتملت على فصول في الأخلاق والآداب، وطرق في التربية والتهديب، وهي تساق أحياناً مساق الحوار، وطوراً مسلك الحكمة والاعتبار، وتارة مذهب التخويف والإنذار كما حوت كثيراً من تاريخ الرسل مع أقوامهم، والشعوب مع حكامهم، وشرح أخبار ماضية شتى (٧٩) وللقصة القرآنية أهداف كثيرة وأغراض متنوعة، سواء صرح بها القرآن الكريم أو لم يصرح، يقول فضل حسن عباس: "لم تأت القصة القرآنية لتقرر هدفاً واحداً، بل إن هذا القصص كانت

٧٧- سورة البقرة، الآية: ٢٤ - ٢٥.

٧٨- سورة هود، الآية: ٩٦، ٩٩.

٧٩- محمد أحمد جاد المولى وأصحابه، قصص القرآن، دار الرائد العربي بيروت، ١٩٨٠م، ص ٣، بتصرف قليل.

له أهدافه الكثيرة وغاياته المتعددة^(٨٠). وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها، وفي طريقة عرضها، وإدارة حوادثها، وسياق أهدافها لمقتضى الأغراض الدينية، وقد تناولت من هذه الأغراض - كما قال سيد قطب - عددا وفيرا من الصعب استقصاؤه، وذلك لأنه يكاد يتسرب إلى جميع الأغراض القرآنية، فإثبات الوحي والرسالة، وإثبات وحدانية الله تعالى، وتوحد الأديان في أساسها، والإنذار والتبشير، ومظاهر القدرة الإلهية، وعاقبة الخير والشر، والصبر والجزع، والشكر والبطر، وكثير غيرها من الأغراض الدينية والمرامي الخلقية، وقد تناولته القصة القرآنية، وكانت أداة له وسبيلاً^(٨١) إليه ونحن هنا لا نريد أن نتحدث عن جميع الأغراض والأهداف الجزئية التي حققتها كل قصة على حدة، ولكن سنتناول الأغراض الرئيسة العامة التي هي بمثابة القاسم المشترك بين جميع القصص القرآنية:

أولاً: العبرة:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٨٢). إن القصص القرآنية فيها العبرة، وما ذكرت قصة إلا إذا كان معها عبرة أو عبر وفيها المثالات لمن عصوا وتركوا أمر ربهم، وفيها بيان ما نزل بالأقوياء الذين غرهم الغرور، والجبابة ﴿الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾.

ثانياً: التوحيد:

لا تساق القصص القرآنية للعبير فقط، وإنما تساق أيضاً لإبراز أغراض دينية أخرى مثل الحقائق الإسلامية، كالتوحيد. وسوق الأدلة على التوحيد في سياق القصة يجعله يسرى إلى النفس من غير مقاومة، وتكراره يجعله يخط في النفس خطوطاً، وتعمق الخطوط فيكون الإيمان، وفي قصص الأنبياء بلا استثناء تبرز الدعوة إلى التوحيد ففي قصة يوسف عليه السلام دعوة إلى التوحيد وعبادة الله عز وجل وحده لا شريك له، يقول عليه السلام لصاحبيه في السجن ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ

٨٠- فضل حسن عباس: القصص القرآني، ايحاؤه ونفحاته، الطبعة الأولى، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٧م/

١٤٠٧هـ، ص ١٠، بتصرف يسير.

٨١- سيد قطب: المرجع السابق، ص ١١٨.

٨٢- سورة يوسف، الآية: ١١١.

مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٣﴾ ، نداء موجه إلى صاحبيه يحمل دلالة التساؤل الإنكاري، أيهما أنفع يا صاحبي؟ هل عبادة الآلهة المتعددة التي لا تنفع ولا تضر أم عبادة الله الواحد الأحد القادر على كل شيء؟ والاستفهام وإن جاء للإنكار فهو للتعيين ليضع صاحبيه في موضع الاختيار. ذلك لأن الاختيار يتولد عن اقتناع كامل، ومن ثم تتحدد المسؤولية، يا صاحبي إن ما تعبدونه من دون الله آلهة باطلة اخترعتموها من أنفسكم وأطلقتم عليها أسماء مختلفة ما أنزل الله بها من سلطان أي دليل والحكم كله لله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، وإن ما أدعوكم إليه لهو الدين الحق الذي لا عوج فيه. ولقد تدرج يوسف عليه السلام في دعوتهم وألزمهم الحجة بأن يبين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة، ثم برهن على عدم استحقاق آلهتهم للعبادة ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم وهو عبادة الواحد الأحد وذلك من الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله عز وجل، حيث قدم الهداية والإرشاد والنصيحة والموعظة، وهو يتحدث عن البراهين والأدلة على وحدانية الله عز وجل حتى يصبح للدليل تأثيره في القلوب وأثره في النفوس (٨٤).

والتوحيد هو المقوم الأول في التصور الإسلامي وهو الحقيقة الأساسية في العقيدة الإسلامية،

كما هو الحقيقة الثابتة في الرسائل السماوية جميعها.

ثالثاً: وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية:

للدعوة وسائلها وأساليبها وطرقها المختلفة حسب اختلاف الزمان والمكان، والقصة القرآنية بمادتها والحوادث التي تتكون منها تصلح لتكون وسيلة للدعوة، فبمعرفة المادة التي دعا إليها الأنبياء والمرسلون والصالحون من السلف نستطيع أن ندعو الناس كما دعوا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أننا بقصنا القصة القرآنية وبإلقائها إلى الغير نقدر على جلب الانتباه وإحياء المشاعر وانعكاس الضمائر والإتيان بالمؤثرات المقصودة التي من خلالها نؤدي واجباتنا الدعوية. وأن للدعوة أهمية كبرى في حفظ إيمان المؤمنين وفي حماية عقيدتهم الصحيحة. وإننا لو أمعنا النظر في أسلوب دعوة السابقين من الأنبياء والمرسلين لوجدنا أنهم كانوا ملتزمين بدعوة أقوامهم إلى التوحيد قبل كل شيء، وهو أول عقيدة عرفت البشرية، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

٨٣- انظر للتفصيل: محمد قطب عبد العال، نظرات في قصص القرآن، ص ٥٢-٥٤.

٨٤- سورة يوسف، الآية: ٣٩-٤٠.

مَنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٨٥﴾ فإن للأنبياء والرسل منهاجا متساويا في الدعوة وهو دعوة قومهم إلى عقيدة التوحيد أولاً ثم إلى العقائد الأخرى.

ثم يتضح كون القصة وسيلة من وسائل الدعوة بأن القرآن الكريم قد بيّن أن أسمى الغايات من سياق القصص القرآنية هو التفكير والتدبر، يقول الله عز وجل: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٨٦). فالداعية بمطالعة القصة القرآنية، سواء كانت في الأنبياء والمرسلين أو في غيرهم، وبتفكره فيها سوف يجد أشياء كثيرة تفيده في دعوته، كالقوة في النفس والصبر على المشقة والتحمل على الأذى والتوكل على الله.

رابعاً: تأييد الرسول وتسليته:

في القصص القرآنية تأييد للرسول وتثبيت له. وتأثير في نفوس الأتباع الذين يعانون جيروت الكافرين وظلمهم. فيقبلون على الدعوة ويؤمنون بها دون خوف ولا وجل. وتبعاً لهذا جاءت قصص الأنبياء مجتمعة ومتفرقة مختومة بمصارع المكذبين. ويصبح تكرار القصص تأكيداً على هذا الغرض وتثبيتاً للرسول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (٨٧) وقال الله سبحانه وتعالى في ما حدث للرسول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٨). وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ أَتُنْكُمُ اللَّاتُوتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٨٩) فأنزل الله تعالى عليهم عقابه، كما قال تعالى في نهاية القصة: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٩٠) والغرض الذي تتضمنه القصة هو تسليية الرسول ومؤانسته، فهو نفسه يدعو قومه

٨٥- محمد قطب عبد العال: نظرات في قصص القرآن، ص ٦٤، (بتصرف كبير).

٨٦- سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

٨٧- سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

٨٨- سورة العنكبوت، الآية: ١٤، ١٥.

٨٩- سورة العنكبوت، الآية: ٢٨- ٢٩.

٩٠- سورة العنكبوت، الآية: ٣٤.

إلى الإسلام، وانقسم قومه إلى قسمين: مستضعفين يؤمنون به، ومستكبرين كافرين، والمغزى أن الرسول ليس بدعاً من الرسل، وإنما الكلّ يدعو إلى الله عزّ وجلّ والكلّ يواجهه بالتحدي، وليس على الرسول إلا الصبر والتحمل والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، كما تتضمن أيضاً تحذير المكذابين للرسول صلى الله عليه وسلم، والمتحدّين لدعوته من أن ينزل عليهم العقاب الذي نزل على قوم نوح وقوم لوط عليهما السلام^(٩١)، والقصة تثير الرهبة والخوف، كما تثير الإحساس بالأمان في كنف الدين.

خامساً: الحث على العدل والبعد عن الهوى:

أبرزت القصة القرآنية أهمية العدل في سياسة الأمم والناس، ووصف الله عزّ وجلّ نفسه بالحكم العدل، وأكدت القصص على أن المقياس الحقيقي للحكم العادل هو إدراك الحق، وأن لا يكون للهوى سلطان في الحكم، ولا بد لمن يقوم بالأحكام من أن يكون عالماً مؤمناً مدركاً للحق بعيداً عن الهوى، وفي قصة "داود" عليه السلام نموذج لهذا الغرض الديني الذي تتضمنه القصة القرآنية، قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَهَيُّ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٩٢). وبدئت الآيات بالاستفهام ثم بضمير المخاطب، وهو ضمير قصد به نبيّ الله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو من هذه الناحية يعتبر تسليية وإيناساً للرسول صلى الله عليه وسلم، والاستفهام قصد به إثارة الانتباه، وفتح المدارك وتهيئتها لما يقال، والتشويق إلى سماع هذا الموقف العجيب الذي حدث لداود عليه السلام.

٩١- محمد قطب عبد العال، نظرات في قصص القرآن، ص ٧٠-٧١ (بتصرف).

٩٢- سورة ص، الآية: ٢٦-٢١.

وهذه القصة تتضمن ثلاثة أمور، في كل واحد منها إشارة إلى أمثل الطرق للوصول إلى العدل

في الأحكام.

أولاً: أنه سبق إلى الحكم دون أن يستمع إلى الخصم، وذلك قد يكون مدعاة إلى الظلم.

ثانياً: لم يكتف بالحكم في القضية المعروضة، ذات الظروف الخاصة والملابسات المحددة بل عمم الحكم. والقضاء يكون في القضية المدروسة فقط ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

ثالثاً: الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة، والحكم الظالم هو ما يقع تحت سلطان الهوى والشهوة^(٩٣). فإذا نهى الله سبحانه وتعالى نبيّه داود عن ذلك، فإنما ينهاه عما يؤدي إلى فساد الحكم، وبهذا يتبين أن الحكم بالهوى مدخل إلى الظلم.

سادساً: الترغيب والترهيب:

من أحسن ما يتخذ منه في أسلوب الترغيب والترهيب هو ما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي صلى الله عليه وسلم، فهما ملجآن لن يضل أحد ما إن تمسك بهما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "تركتم فيكم أمرين لن تضلّوا ما مسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله"^(٩٤). ولما كان الغرض الأقصى من التربية الإسلامية هو إيجاد الإنسان الصالح فلا بد من أن يفهم المربون فيما يعنيه اسم "الإنسان الصالح" كى يرغبوا أبناءهم في الحصول عليه ويهربوا من فشل في الحصول عليه، والقصة القرآنية هي خير دليل للوصول إلى ما يكون فيه من صورة إنسان صالح، لأن العوامل القصصية فيها ما لا بد أن يكون به الإنسان صالحاً. فالشخصية والحوار والأحداث فيها كلها حقيقة، وعلى هذا الأساس فإنه من الضروري أن يتخذ المربون الترغيب والترغيب المجلوب من القصة القرآنية وسيلة من وسائل التربية الدينية^(٩٥).

سابعاً: ذكر النعم:

من الأغراض التي حرصت القصة القرآنية على إبرازها غرض يتحدث عن بيان فضل الله تعالى ونعمته على أنبيائه وأصفياؤه وذلك في قصص سليمان وداود وإبراهيم ومريم عليهم السلام

٩٣- انظر: محمد قطب عبد العال، المصدر السابق، ص ٦٥-٦٦ (بتصرف).

٩٤- رواه الإمام مالك في الموطأ، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، الحديث رقم ٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

٩٥- محمد بدرين شهير: القصة القرآنية، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان، ص ٧٦.

وغيرهم، فلقد وردت في قصص هؤلاء جميعاً، مظاهر النعم التي تجلب عليهم في مواقف كثيرة متنوعة، حيث ارتبطت نعمة الله عز وجل بالموقف الذي جاءت فيه^(٩٦).

إن القصة القرآنية قصة صادقة بابتعادها عن الأساطير والخرافات والخيال الوثني والوهم، واقتربها من الواقع المجرد وتتبع آثار الحقيقة، بعيداً عن تلفيق الوقائع أو اختلاف الأخبار المكذوبة، فعلى وجه العموم فإن القصة القرآنية تختلف عن غيرها في الوصف وفي الغرض، أما الوصف فإن القصة في القرآن الكريم صدق بكل كلمة فيها، وبكل جملة من تراكيبها، وغيرها من القصص لا يلتزم فيه ذلك. وأما الغرض فإن المقصد فيها يتصل بمقاصد القرآن الكريم ومقاصد القرآن الكريم في أعلى درجات السموّ والرفعة، فهو كتاب هداية من العليم الخبير القدير الذي لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه أمر^(٩٧).

إن القصة القرآنية تمتاز عن غيرها بخاصيتين لا يمكن وجودهما في غيرها:

الف: اشتمالها على المعجزات والخوارق، ولا عجب فهي قصص الأنبياء وأحداث المرسلين.

ب: ورودها بأسلوب خاص وهو أسلوب القرآن المعجز في القصة وليس إعجازه في عرضها للأحداث والحقائق التاريخية، وإنما إعجازه في صدق تصويره للحقائق صدقاً خالصاً. يلتزم القرآن الكريم في عرضه للقصة أسلوب الرواية، وهو الطريقة التي تشعر بأنك تسمع أخباراً قد ذهب أشخاصها في التاريخ وانتهى دورهم في الحياة.

تخالف القصة القرآنية القصة الأدبية بتمسكها بالحقائق وابتعادها عن الأساطير والخرافات، وأما القصة الأدبية مهما بلغت من الأصالة فلا يمكن أن تجمع الحق من جميع أطرافها وإنما بحسبها من الأصالة أن تلمّ ببعض من أطراف الحق.

وما توفيقي إلا بالله هو وليي عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله على سيدنا ونبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* * * *

٩٦- انظر للتفصيل: محمد قطب عبد العال، المرجع السابق، ص ١٠٨.

٩٧- السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٤٧-٤٨.